المجلة التاريخية الجزائرية
ISSN: 2572-0023 / EISSN: 2716-9065
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/664
المجلد:06، العدد:01 (2022)، ص560-574

حرب المدينتين فاس ومراكش، بين طلب الثأر وطلب الملك (1603- 1613م)

The war of the two cities, Fez and Marrakesh, between revenge and the throne (1603-1613)

فيصل مبرك
المركز الجامعي بريكة (الجزائر)
Fayssal.mabrak@cu-barika.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2022/02/04
تاريخ القبول:
2022/04/13

الكلمات المفتاحية:
- ✓ المغرب الأقصى
- ✓ المولى زيدان
- ✓ فاس
- ✓ مراكش

الملخص:

يستهدف هذا المقال مرحلة هامة من مراحل الدولة السعدية، وهي فترة ما بعد المنصور الذهبي سنة 1603؛ إذ دخل المغرب الأقصى حالة من التفكك والانقسام، بدأت في شكل اختلاف بين أبناء المنصور الثلاثة حول ولاية العهد، وفي وقت لجأ فيه زيدان لمدينة فاس التي ناصرته وبايعته أول أمرها، اتجهت وبسرعة مدينة فاس لاستباق البيعة لأخيه المأمون، وفي أحداث وتفاصيل لم يعد صراع إخوة خلافة الأب بقدر ما أصبح صراع مدينتين أجل الحكم، عصفت تل الأحداث حتى بحال المولى زيدان والمأمون وأخيهما أبي فارس، بسبب اختلاف المواقف وتذبذبها، وسرعان ما تحول الأمر إلى حروب ثأر ونزاعات طويلة انقسم فيها البيت السعدي إلى قسمين: مملكة فاس بقيادة عبد الله بن المأمون بعد أن حاربوا أبيه من قبل، ومملكة مراكش بقيادة زيدان بعد أن كان أول من أعلن عنها الحرب لأنها منشة عن الجماعة، في الأخير ترسخ الشرخ بين المدينتين ليشكلا إمارتين سعديتين مستقلتين تماما.

Article info

Received:
04/02/2022
Accepted:
13/04/2022

Key words:
- ✓ Morocco
- ✓ Sultan Zidane
- ✓ Fez city
- ✓ Marrakesh

Abstract:

This article targets an important era of the Saadian state, the period after Al-Mansur Al-Dhahabi in 1603; After which Morocco entered Al-Aqsa in a state of disintegration and division, it began in the form of a dispute between the three sons of Al-Mansur over the mandate of the covenant, and at a time when Zaidan resorted to the city of Fez, which supported him and pledged allegiance to him at first, the city of Fez turned to give the pledge of allegiance to his brother Al-Mamoun, and there was no conflict left for the brothers of For the rule, it became a struggle between two cities for the purpose of rule, influence and revenge. These events ravaged even the case of Mawla Zaidan, al-Mamun and their brother Abu Faris, due to the different and vacillating positions, and soon the matter turned into wars of revenge and long disputes in which the Saadi House was divided into two parts: the Kingdom of Fez led by Abdullah bin al-Mamun and the Kingdom of Marrakesh, led by Zaidan, two completely independent Saadian kingdoms.

مقدمة

اهتم المولى أبو العباس أحمد المنصور الذهبي بالجانب العسكري وبتنظيم الجيش وتطويره، وكذا توسيع نفوذ دولته حتى السنغال والسودان الغربي، ولم تكن وجهة المنصور نحو السودان إلا من أجل مصلحة اقتصادية، وذلك لأنه مع النهضة الأوربية انتهى المضمون الاقتصادي والاجتماعي والسياسي التقليدي للدول، من دول مرتبطة باليابس، إلى دول ذات ارتباط وثيق بالبحر، غير أنه كلما توثقت العلاقة بالبحر إلا وتقوت الدولة أكثر، وهذا ما انتبهت له دول أوروبا خاصة الغربية منها، هذه الفكرة لم تغب عن المنصور، فرغم أنه توسع على إلى الداخل على حساب الصحراء، إلا أن كل ذلك كان من أجل تموين الجيش المغربي الطموح بالعبيد[1] والسيطرة على منابع الذهب ومعادن الملح من بلاد السودان الغربي وحرمان البحارة والمغامرين البرتغاليين منها[2]، ولكن هذا لن يتحقق إلا بتحقيق الاستقرار والأمن في البلاد.

ومن أجل فرض الأمن والاستقرار ومد نفوذ دولته؛ سهر المنصور منذ وصوله للحكم على توسيع سلطته على حساب المناطق النائية والصحراء، كغزواته ضد عرب الخلط وأهل أزغار[3] وإخماده لثورة الناصر بن الغالب[4] وغير ذلك، كما جدد جهاز الحكم مستعينا بمجلس الشورى ويسمى "**الديوان**"، الذي يجتمع كل يوم أربعاء، يحظره أكابر الدولة السعدية وقواد الجيش والوزراء وبعض الكتاب[5]، يفصل هذا الجهاز في القرارات المصيرية للدولة، كما طور جهاز القضاء وسهر على تحقيق العدالة فيه، فكان القضاء يوكل لقاض متضلع في العلوم الدينية وعلى قدر من الثقافة والنباهة والذكاء والكفاءة، ولكل قاض خليفة ومساعد يدعى "**المُقَدَّمْ**"، تُعقد جلساتهم القضائية في ساحة، تتم فيها مراسيم القضاء وحل المشاكل بين الناس، بحضور الناس والشهود العدول، وبعض القضايا يُستأنف فيها الحكم إلى قاضي القضاة، وهو أكبر سلطة قضائية في البلاد [6].

الإشكالية: كان لا بد أن يعرض المنصور قضية ولاية العهد لواحد من أبنائه، وبالفعل تمت البيعة لولي العهد محمد الشيخ المأمون أمام القضاء والديوان، غير أن الأحداث السياسية لم تكن لصالح الأسرة السعدية ولا المغرب الأقصى، **فما هي السياقات التاريخية التي أدت إلى انفلات الأمن وقيام الحرب الأهلية في المغرب الأقصى وانقسام البلد بين فاس ومراكش؟ وكيف تحول الصراع بين أبناء المنصور الثلاثة إلى فتنة بين سكان المدينتين غذتها الفتاوي الدينية والرؤية الانتقامية الضيقة والاعتماد وسوء التدبير والتقدير من طرف الوجهاء؟**

1. إرهاصات الأزمة: ولاية العهد للمأمون، وحكم الأقاليم لإخوته

كان محمد الشيخ المأمون أول أمره خليفة أبيه على فاس وما جاورها من الأقاليم[7]، وقد أخذ البيعة في حياة أبيه سنة 987هـ[8]، والتي جددها له أبوه في سنة 992هـ، وذلك لأن البيعة الأولى كانت قبل سن بلوغه[9]، إلا أنه لم يتم له ذلك، فقد أعلن المأمون عصيان أبيه وخروجه عن طاعته، فخرج المنصور بجيش قوامه 11000 مقاتل من مراكش إلى فاس، فتيقن المأمون من عدم جدوى مجابهة أبيه ففر إلى زاوية سيدي أبي الشتاء، نحو فشتالة، فتبعه أعوان والده فأسروه وسجن بأمر من والده في مكناس[10].

ينقل صاحب الاستقصا عن الفشتالي بخصوص بيعة محمد الشيخ المأمون الأولى أن المنصور لما خف عنه المرض، استشاره أعيان الدولة أن يكون له ولي عهد، فتهيأ القائد عبد المؤمن بن الغازي العمري –بحكم قربه من المنصور– فقال له: "**يَا مَوْلَانَا؛ اللهُ تَعَالَى حَفِظَ الْإِسْلَامَ بِإِبْلَالِكَ مِنْ هَذَا الْمَرَضِ، وَعَصَمَ الدِّينَ بِإِبْقَائِهِ عَلَيْكَ، وَقَدْ بَقِيَ النَّاسُ فِي أَيَّامِ سَقَمِكَ فِي حَيْرَةٍ عَظِيمَةٍ وَدَخَلَهُمْ مِنَ الدَّهَشِ مَا لَا يَخْفَى عَلَيْكَ، فَلَوْ عَيَّنْتَ لَنَا مِنْ أَبْنَائِكَ الْقَسَاوِرَةِ مَنْ تَجْتَمِعُ كَلِمَةُ الْإِسْلَامِ عَلَيْهِ، وَيُشَارُ بِالْخِلَافَةِ إِلَيْهِ، لَكَانَ أَوْلَى وَأَلْيَقَ بِسِيَاسَةِ الْمُلْكِ، وَإِنَّ ابْنَكَ الْأَبَرَّ أَبَا عَبْدِ اللهِ مُحَمَّد الْمَأْمُونَ حَقِيقٌ بِذَلِكَ وَجَدِيرٌ بِسُلُوكِ تِلْكَ الْمَسَالِكِ، لِمَا فِيهِ مِنْ خَلَالِ الْخَيْرِ وَخِصَالِ السِّيَادَةِ، زِيَادَةً عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ التَّيَقُّظِ فِي أُمُورِهِ وَالْحَزْمِ فِي شُؤُونِهِ، وَقَدْ ظَهَرَتْ لِلنَّاسِ مَحَاسِنُ سِيرَتِهِ وَاطَّلَعُوا عَلَى جَمِيلِ سَرِيرَتِهِ**"[11]، وقد أعجب المنصور بهذا الكلام، وقال لقائده: "**سَوْفَ أَسْتَخِيرُ اللهَ فِي ذَلِكَ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْ عِنْدِ اللهِ يُمْضِهِ**"[12]، وقد علق الناصري على هذه الرواية وأبدى رأيه فيها مع بعض التحفظ، إلا أنه فصل في أنها تخالف الواقع فقد فذكر أن الذي قاله القائد عبد المومن الغازيي خلاف الواقع، وأن الشواهد والأحداث التاريخية ستؤكده[13]، والغريب أن المأمون قد انشق معلنا الاستقلال في حياة أبيه، وبعد ذلك يقول: "**فَلَا يَنْبَغِي لِمَنْ وَقَفَ عَلَى كَلَامِ هَؤُلَاءِ الصِّنْفِ مِنْهُمْ أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ التَّثَبُّتِ وَالتَّبَصُّرِ وَاللهُ تَعَالَى الْهَادِي إِلَى الصَّوَابِ**"[14]، وهو بهذا الكلام لا يقصد أن الفشتالي ليس بالثقة فيما يرويه عن السعديين[15]، بل يقصد هذا الصنف من البطانة التي تزين للحاكم ما يتوافق مع هواها ومصالحها.

وبعد هذه الاستشارة قام المنصور باستخارة الله تعالى، فلما انتهى المنصور من ذلك، واتفق الأعيان على الإشارة للمأمون بالولاية، قام المنصور بجمع وجهاء حاضرتي مراكش وفاس وغيرهم من أشياخ القبائل وأوصى بالعهد لابنه الأكبر محمد الشيخ المأمون في غيابه يوم الاثنين الأخير شعبان سنة سبع وثمانين وتسعمائة [16].

بعد ذلك بسنتين تقريبا بعث المنصور إلى ابنه المأمون بفاس ليبايعه بحضرته، فخرج المنصور بعسكره إلى تانسيفت خارج مراكش 12 صفر 989هـ، وقدم عليه المأمون في غرة جمادى الثانية من السنة نفسها، فكانت ملاقاتهما في جو بهيج واحتفالات بديعة، ويختصر لنا الناصري مشهد لقاء المنصور بالمأمون، فيقول: "**وَلَمَّا اصْطَفَّ جَيْشُ الْمَنْصُورِ وَجَيْشُ الْمَأْمُونِ تَرَجَّلَ الْمَأْمُونُ عَنْ فَرَسِهِ وَتَقَدَّمَ حَافِيَ الْقَدَمِ، فَعَفَّرَ وَجْهَهُ بَيْنَ يَدَيْ وَالِدِهِ ثُمَّ قَبَّلَ رِجْلَهُ وَالْمَنْصُورُ عَلَى فَرَسِهِ وَاقِفٌ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ فَدَعَا لَهُ بِخَيْرٍ وَأَظْهَرَ الْفَرَحَ بِمَقْدَمِهِ**"[17].

إذا كان الناصري يذكر هذه الرواية عن الفشتالي وعن غيره، ويفصلها ويسترسل فيها، فإن هناك رواية أخرى لأحد مؤرخي القرن الثامن عشر الميلادي لا تختلف كثيرا عن الرواية الأولى إلا أنها لا تتطابق معها[18]، وهي رواية محمد بن الطيب القادري، الذي يذكر أن المنصور قد أخذ العهد لولده محمد الشيخ عام 987هـ ثم جددها له عام 992هـ، ولكنه يضيف: "**ثُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَتِمَّ لَهُ أَمْرٌ؛ إِذْ غَلَطَ عَلَى أَبِيهِ فِي حَيَاتِهِ... عَامَ عَشَرَةٍ وَأَلْفٍ**"[19]، مع أن ظاهر ما نقرأ من نص القادري يفيد بأن ولاية العهد الثانية للمأمون لم تتم أصلا، إلا أنه يمكننا أن نفهم معنى آخر للنص، وذلك أن البيعة قد تمت فعلا، إلا أنها فُسِخَتْ تلقائيا لما كان من تطورات الأحداث

حينها، والدليل على ذلك أن ردة فعل المنصور –محاربة ابنه– تأخرت حتى سنة 1010هـ، وقد تحول المأمون بعد كل هذه الأحداث إلى فار من أبيه في زاوية ابن أبي الشتاء، ثم سجينا حتى وفاة أبيه[20].

جدد المولى أحمد المنصور العهد لابنه محمد الشيخ المأمون في شهر شوال من سنة 992هـ، وذلك أن إخوته لم يكونوا قد بلغوا الحلم في البيعة الأولى، فأراد أن يستوثقهم بعد البلوغ، فتمت البيعة بتامسنا بحضور المنصور وحضور الشيخ المأمون، وقد وافق له إخوته بخطوطهم على نص ولاية العهد[21]، واستثنى من ذلك ابنه زيدان بحجة أن لا حاجة له بالقَسَمِ لأنه رجل مطيع لوالده وثقة، وهو ما أوجد حرجا في نفوس إخوته سيما محمد الشيخ المأمون، فقد نقل الناصري جزءا من رسالة زيدان إلى أبي زكريا بن عبد المنعم الإمام[22]، وقال له: "**إِنِّي حَضَرْتُ بَيْعَةَ مُحَمَّدٍ الشَّيْخ صَاحِبِ الْغَرْبِ سَامَحَهُ اللهُ، وَحَضَرَ أَوْلَادُ السُّلْطَانِ فَاسْتَحْلَفَهُمْ إِلَّا أَنَا، فَإِنَّهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: فُلَانٌ لَا يَحْلِفُ، لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِيمَا نَأْمُرُهُ وَنَفْعَلُهُ؛ وَعَظُمَ ذَلِكَ عَلَى إِخْوَتِي وَظَهَرَتْ فِي وُجُوهِهِمْ لِأَجْلِهِ الْكَرَاهِيَةُ**"[23].

لا شك أن المولى المنصور الذهبي لم يوضح الكثير من الأمور الغامضة في تلك البيعة، ولم يوضح شأن البيعة بعد تمرد المأمون، والأكثر من ذلك أنه بعدما فرغ من هذه البيعة، أراد أن يقسم أعمال وولايات المغرب على أبنائه لكي لا يثير فتنة الغيرة أو الحسد في نفوس إخوة محمد الشيخ المأمون، لهذا فقد عقد لابنه أبي فارس على السوس وسائر عمائره، وعقد لأبي الحسن على مكناسة وما جاورها، وعقد لزيدان على تادلا وما جاورها، ثم عكس ذلك لأسباب نجهلها، فعين زيدان على مكناسة وعين أبا الحسن على تادلا[24]، ولعل هذا الأمر من أهم الأسباب التي تسهل العصيان والتمرد على الخليفة، وذلك أن حكام الأقاليم سيسعون إلى توطيد حكمهم وربط علاقاتهم مع الأعيان والعامة وقادة الجند ليتمكنوا من إعلان استقلالهم بتلك الأقاليم البعيدة عن العاصمة.

2. موت المولى المنصور الذهبي

اتفق جل المؤرخين على أن وفاة المولى أحمد المنصور كانت نتيجة إصابته بوباء هلك على إثره آلاف الناس حسب الإفراني، انتشر هذا الوباء من سنة 1007 إلى 1016هـ/ 1599 إلى 1607م[25]، إلا أنه ظهرت شائعات أوردها الإفراني في النزهة تقول بأنه مات مسموما من طرف زوجته عائشة بنت أبي بكر الشيبانية، أم ابنه زيدان بتحريض منه، لأنه أوصى بالبيعة لمحمد الشيخ المأمون[26]، كما قيل أنه منع عنه الأطباء، حتى تفطن المنصور لتلك المؤامرة قال لابنه: "**اِسْتَعْجَلْتَهَا يَا زَيْدَان، لَا هَنَّاكَ اللهُ فِيهَا**"[27]، إلا أن الكثير من المؤرخين لا يميلون إلى تصديق هذه الرواية، ذلك أن جل المؤرخين يثنون بالخير على المولى زيدان ويصفونه بصفات المروءة والأدب وحسن الخلق وسعة العلم والأدب على غرار الإفراني نفسه[28] وأحمد الناصري[29]، كما أن المولى أحمد المنصور قد مات في حجر ابنه زيدان في فاس، في الوقت الذي كان فيه المأمون في سجنه في مكناس، فقد اهتم بمراسيم دفنه وتشييع جنازته.

مات المولى أحمد المنصور الذهبي بالوباء –الطاعون– يوم الأحد السادس عشر من ربيع الأول عام 1012هـ ما يوافق سنة 1613م، وكان موته بفاس وأمر زيدان ولده بنقله منها بعد مدة إلى مراكش حسب صاحب نشر المثاني، فقبره هناك إلى الآن[30]، وبموته شهد المغرب الأقصى مع مطلع القرن السابع عشر الميلادي/الحادي عشر الهجري تحولا خطيرا إثر وفاة المولى أبي العباس أحمد المنصور الملقب بالذهبي (1587– 1603م)[31]، وقد صاحب هذه السنة تغير شبه كلي للحالة السياسية والاجتماعية وحتى الاقتصادية، وبذلك فقد المغرب بهذا الحدث الخطير القائد القوي ورأس هرم السلطة في الدولة السعدية، وهو أيضا صاحب توسعاتها وازدهارها واستقرارها.

3. الاقتتال بين أبناء المنصور

لما سمعت العامة في كبرى الحاضرتين (مراكش، فاس) بخبر وفاة المولى أحمد المنصور، بايع الفاسيون المولى زيدان بن المنصور، ثم كتبوا لأهل مراكش، بخبر مبايعتهم له، فامتنعوا عن مبايعته، وبايعوا أخاه المولى أبي فارس لأنه كان يخلف أباه المنصور لما يغادر عاصمته مراكش، خاصة وأن له علاقات طيبة مع حاشية أبيه، بينما زيدان كان في تادلا بعيدا عنهم وعن مراكش، فلم يحصل على الإجماع الذي كان يطمح إليه رغم أن الكثير من المؤرخين يشهدون له بأحقيته في الحكم وأهليته وكفاءته نظرا لعلمه وأدبه ورجاحة عقله، وهو ما عبر عنه أحمد بن خالد الناصري بقوله: "**لِأَنَّ زَيْدَانَ كَانَ مُنْتَبِذًا عَنْهُمْ بِتَادلَّا سَائِرَ أَيَّامِ أَبِيهِ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ بِهِ كَثِيرُ إِلْمَامٍ وَلَا مَزِيدَ اسْتِئْنَاسٍ مَعَ أَنَّهُ كَانَ جَدِيرًا بِالْأَمْرِ لِعِلْمِهِ وَأَدَبِهِ وَكَمَالِ مُرُوءَتِهِ رَحِمَهُ اللهُ، إِلَّا أَنَّ السَّعْدَ لَمْ يُسَاعِدْهُ**" [32].

إن مجرد حدوث بيعتين مختلفتين في المغرب الأقصى من شأنه أن يثير الكثير من أقاويل العامة، والتوتر السياسي بين الطرفين، ولا نعلم ما إذا كان المولى زيدان أو أخوه –أبا فارس– قد تراسلا بشأن إخماد الفتنة وحقن الدم بين الفاسيين والمراكشيين، أو على الأقل وصلا إلى حل يمنع المواجهة العسكرية بينهما ولو مؤقتا؛ غير أن ما تفيد به المصادر أن الخلاف بين الطرفين قد وصل أشده، مما جعل فقهاء فاس[33]، وعلى رأسهم قاضي ابن أبي النعيم والمفتي أبي عبد الله القصار[34] – الفاسيين– يتخذان موقفا من شأنه أن ينهي هذه الفتنة ولكن هذا الحل تمثل في استعمال القوة ومحاربة الطرف الآخر، فاعتبرا أهل مراكش هم أول من شق عصا الجماعة في المغرب الأقصى، ونصت فتوى الفقيهين على وجوب محاربة المبايَع الثاني ومن حارب إلى جانبه، واستندت هذه الفتوى إلى الحديث النبوي الذي نصه: "**إِذَا بُوِيعَ لِخَلِيفَتَيْنِ فَاقْتُلُوا الْآخِرَ مِنْهُمَا**"[35]؛ وكانت بيعة أبي فارس بمراكش يوم الجمعة أواخر ربيع الأول من سنة اثنتي عشرة وألف، ما يوافق 1603م[36]، في حين كانت بيعة المولى زيدان قبل ذلك، أي بعد وفاة المولى أحمد المنصور مباشرة.

يقر محمد الصغير الإفراني فهو بأن المولى زيدان أول من بويع، ذلك أن أهل الحل والعهد في فاس اعتبرت زيدان خليفة أبيه في فاس ومات في حجره، وكان زيدان قد كتم خبر وفاة أبيه، وبعث في السر من يلقي القبض على أخيه المسجون في مكناس، فمنعه الباشا جوذر، وحمل الشيخ المأمون موثقا إلى أخيه بمراكش وبقي

مدة إلى أن أطلق سراحه فيما بعد، وهي تشبه القصة التي يرويها عبد الرحمن السعدي في كتابه تاريخ السودان [37].

4. خيانة أهل فاس لزيدان

اعتبر المولى زيدان نفسه أول من بويع من إخوته، لذا فقد رأى أن له أحقية على إخوته، فنهض لمواجهة كل من يشق العصا عنه، وقام معه أهل فاس طمعا في أخذ الحظوة في دولته، بعد أن كانت مراكش قاعدة وعاصمة لأبيه من قبله، وهذا ما جعل المولى أبا فارس يرى بأنه يجب القضاء على زيدان في وقت مبكر قبل أن تتقوى شوكته، فاستعان بأهل مراكش الذين أنفوا من أن يتبعوا الفاسيين في مبايعة أميرهم، فجهز أبو فارس جيشا لقتاله واتجه به إلى فاس وجعله تحت قيادة الجوذر، وفي هذه الأثناء خرج المولى زيدان إلى قتال القائد جوذر بنفسه، وهو دعم معنوي لمن يقاتل معه، وهنا بعث القائد جوذر إلى أبي فارس ينصحه بفك قيود أخيه المولى محمد الشيخ المأمون، ليكون دعما معنويا هو الآخر للمقاتلين المراكشيين[38]، فتم تسريحه بشروط كثيرة[39]، فاقتتل الجيشان بأم الربيع ولم تكن النهاية في صالح المولى زيدان ورجاله من الفاسيين، وإثر انهزامه هرب إلى نواحي السوس، واتجه المولى محمد الشيخ إلى فاس ليقنع أهلها بمحاربة قائدهم زيدان الذين بايعوه في أول الأمر[40].

وبما أن المولى المأمون كان واليا على مدينة فاس والأقاليم المجاورة لها، في حياة أبيه، فإن للفاسيين سابق معرفة به، فأراد أن يستميلهم بعد أن بايعوا المولى زيدان، ولما سمع هذا الأخير بقدوم أخيه المأمون، حث في مطالبة الناس بالصمود والتصدي له، إلا أنهم امتنعوا عن قتاله، ورأوا أن بيعة محمد الشيخ المأمون أولى وأسبق من بيعة زيدان، هذا ما تقره النصوص التاريخية في المصادر، ولكن العامة كانت تشكك في قدرة أبي المعالي زيدان منذ البداية، وإنما بايعوه ضنا منهم أن إخوته لن ينازعوه الأمر، وبعد أن أيقنوا عدم قدرته على مواجهة أخويه؛ انفضوا عنه نحو المأمون الذي يعرفونه لعله يعفو عنهم حين تستتب أموره وتستحكم دولته.

في البداية لم يكن المولى محمد الشيخ إلا في ستمائة من الفرسان، ولما كانت المواجهة بينه وبين المولى زيدان، بموضع يقال له "**حواته**" عند أم الربيع فر عن زيدان الكثير من جيشه إلى الشيخ المأمون وهو السبب المباشر الذي أدى إلى هزيمة المولى زيدان، ورجع أدراجه إلى فاس وتحصن بها، ولما وقعت الهزيمة على المولى زيدان امتنع المولى محمد الشيخ المأمون عن أصحاب أخيه المولى أبي فارس معلنا العصيان[41]، وهنا اشتدت شوكته وانتعش أمره، وإثر هذا التطور سار محمد الشيخ المأمون على فاس يطلب أخاه زيدان، ولما سمع زيدان هذا الخبر، حث الفاسيين على الوقوف إلى جانبه، إلا أن السواد الأعظم من الفاسيين تخوفوا من تكرار هزيمة أم الربيع ومن بطش الشيخ المأمون، ومن جهة أخرى تذكر الفاسيون أن المأمون هو أول من عرفوه من أبناء المنصور، ذلك أنه كان خليفة أبيه على فاس، ولهم سابق عهد ومعرفة به، ولعلهم تناقلوا أحاديث بينهم مفادها أن زيدان لن يقدر على المأمون، ولا يجب أن يعرض الفاسيون أنفسهم ومدينتهم لسخط السلطان المستقبلي.

5. هروب أبي المعالي زيدان

لما يئس المولى زيدان من إقناع الفاسيين بمحاربة الشيخ المأمون هرب من فاس وتبعه الكثير من أصحاب المولى محمد الشيخ المأمون طالبين رأسه، إلا أنه تمكن من الهروب إلى وجدة، بينما حاول المأمون أن يوطد حكمه في مدينة فاس، التي استقبل من طرف أهلها ذكورا وإناثا بالفرح والاحتفال، فدخلها دون حرب ودعا لنفسه فيها[42]، وسرح جيش مراكش الذي كان معه، ولا بد أن هذه الاحتفالات ناتجة عن خوفهم منه ومن المراكشيين وليس عن حب وترحيب، لأنه ومهما كانت الأمور ما زال الفاسيون يتذكرون أن أهل مراكش بادروهم بالقتال أولا.

لم يكتف محمد الشيخ بالسيطرة على إقليم فاس وما جاورها، بل أصبح يطمح إلى القضاء على أخيه المولى أبي فارس ليخلو له المغرب الأقصى كله، فقد جهز جيشا لقتال أخيه أبي فارس بمراكش، وكان عدد جيوشه 8000 آلاف –حسب الناصري–، وأمر عليه ولده عبد الله، فسار عبد الله إلى أن لقي عمه بمحلته، فشتت أمرهم وهزمهم وقتل نحو المائة من أصحابه[43]، كما يذكر أن عبد الله كان مع 3000 آلاف مقاتل ضد أبي فارس وأتباعه، والتقى الطرفان في موضع يسمى أكلميم أو مرس الرماد، فكانت الهزيمة على أبي فارس الذي قتل من أتباعه نحو 100 مقاتل، في حين فر هو مع فلول رجاله إلى مسفيوة، وكان ذلك في 20 شعبان 1015هـ/21 ديسمبر 1606م[44]، واستباح القائد عبد الله بن المأمون مدينة مراكش وأساء السيرة فيها[45]، وكان دخوله مراكش في العشرين من شعبان سنة 1015هـ/ 1606م، والغريب أن محمد الصغير الإفراني يذكر بأن المولى أبي فارس لما تلقى الهزيمة من قبل جيش محمد الشيخ المأمون بقيادة عبد الله بن المأمون، هرب إلى أخيه في فاس وهو المأمون نفسه[46]، أما القادري في "**نشر المثاني**"؛ فيذكر أن المولى عبد الله قد دخل مخدع عمه في مراكش، وأنه اغتاله خنقا في 08 شعبان 1015هـ/09 نوفمبر 1606م[47].

6. خيانة أهل مراكش لعبد الله بن المأمون واتصالهم بزيدان

كان الشيخ المأمون قبيح السيرة سيء الأخلاق، أكثر من الإساءة للعامة والخاصة في فاس، ولم تكن سيرة ابنه في مراكش مختلفة فقد كرهتهما العامة والخاصة وأنكرت سياستهما[48]، وهو الأمر الذي سهل على المولى زيدان الرجوع إلى مراكش بعد مراسلات سرية مع أعيان المدينة[49]، يذكر المؤرخ ERNEST MERCIER أن زيدان قدم إلى المدينة خفية في الظلام، من دون علم عبد الله بن محمد الشيخ المأمون وحراسه، بطلب من أعيان المدينة – مراكش– وأصاب زيدان في صفوف رجال عبد الله بن المأمون الكثير منهم بالقتل، وهرب عبد الله وعدد قليل من رجاله، وفي هذه الأثناء حدثت بلبلة بين العامة والجيش فبدأ العامة ينتقمون من الجيش والرماة فصاحب كتاب تاريخ الدولة السعدية مثلا يذكر أن هذه الأحداث أودت بحياة 4000 !! معظمهم من الجيش، حتى نادى المولى زيدان بالأمان محاولا فرض النظام والهدوء في المدينة[50] .

وبعد عودة المولى زيدان إلى مراكش تخوف المولى محمد الشيخ من تعاظم شوكته فبعث له ابنه مرة ثالثة، وهذه المرة بتاريخ ذي الحجة 1016هـ/ 1607م، فالتقى الجمعان بوادي بوركراك فكانت الهزيمة هذه المرة على

عبد الله ومن معه من الفاسيين، فهرب عبد الله بن المأمون تاركا وراءه كامل المحلة وعددا كبيرا من الفاسيين الذين رغبوا في الانضمام إلى راية زيدان، ولما فعفا عنهم؛ ندموا على خيانتهم له وتخليهم عنه وخلعه بعد مبايعته.[51]

كل هذا التطور الذي حصل جعل من المولى محمد الشيخ بن أحمد المنصور الذهبي في موقف صعب، نتيجة تراجع شعبيته في مراكش وفاس ونتيجة الهزائم التي توالت عليه وعلى ابنه عبد الله، وخاصة بعدما سئمت العامة من تصرفات الجيش، فقد ذكر الإفراني بأن جيش عبد الله لما خرج لملاقاة زيدان بوادي بوركراك جعل يرهب الناس ويقسو عليهم ليعيد هيبته، وفي هذا يقول الإفراني: "...**وَتَوَجَّهَ نَحْوَ طَرِيقِ تَامسنَا وَامْتَحَنَ أَصْحَابَهُ فِي ذَهَابِهِمْ... وَلَمْ يَزَلْ أَصْحَابُهُ يَنْهَبُونَ مَا يَمُرُّونَ عَلَيْهِ مِنْ أَصْحَابِ الْخِيَامِ وَأَهْلِ الْعَمُودِ وَيَسْبُونَ الْبَنَاتِ وَكَانَ وُصُولُهُمْ لِفَاسَ فِي الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَوَّالِ السَّنَةِ [1016هـ/ 1607]، ثُمَّ فِي آخِرِ ذِي الْحِجَّةِ مِنَ السَّنَةِ تَحَرَّكَ عَبْدُ اللهِ أَيْضًا لِمُرَّاكُش فَالْتَقَى الْجَمْعَانِ بِوَادِي بُورِكْرَاك فَهُزِمَ عَبْدُ اللهِ، وَفَرَّ فِي رَهْطٍ قَلِيلٍ وَتَرَكَ مَحِلَّتَهُ...**"[52]، كل هذه التطورات جعلت من المأمون وابن عبد الله يتخلون عن فاس ويتوجهون إلى القصر الكبير ومنه إلى العرائش[53].

7. لجوء محمد الشيخ المأمون إلى إسبانيا

بعد أن هدأت أحوال مراكش ولاحت بوادر استقرار المولى زيدان كملك جديد لها، أمر هذا الأخير قائده العلج مصطفى باشا بالتوجه إلى فاس، فدخلها من غير حرب، وبعدها اخذ في ملاحقة المأمون وأبي فارس وعبد الله – وكانوا بالقصر الكبير – وكانت ملاحقة مصطفى لهم من القصر الكبير إلى موضع يقال له أروارات، ولكن دون جدوى ولم يلتق الطرفان إلا بعد أن توجه عبد الله من جديد إلى فاس فخرج لهما العلج مصطفى، فاقتتل الطرفان وقتل مصطفى باشا بعد أن سقط من على ظهر جواده، وأخذت محلته ووقع النهب فيها، ودخل عبد الله المدينة في السابع من ربيع الثاني 1018هـ/ 1611م[54]، وبهذا رجعت فاس تحت يد عبد الله بن المأمون من جديد.

أما أبوه محمد الشيخ المأمون فقد كان بتطوان في شمال المغرب، وقيل أنه عبر إلى إسبانيا طالبا يد المساعدة، وذلك حين تفوق المولى زيدان بن المنصور عليه وراح يطارده في الشمال، مما اضطره إلى حمل أثقاله وعياله واللجوء إلى إسبانيا عن طريق العرائش والجزيرة الخضراء رفقه والدته وأبنائه الصغار وبعض قادته، ثم تقرر نقله إلى كرمونة[55] مع حاشيته تحت حراسة حاكمها وعنايته، وخصص له معاش يومي مستخرج من ضريبة الخمور[56]، ومن أجل الاستفادة من الدعم الإسباني أعلن المأمون تنازله عن العرائش ومنحها لفيليب الثالث (PHILIPE III) وقد عبر عن ذلك صاحب تاريخ الدولة السعدية التكمادارتية بقوله: "...**وَهَرَبَ إِلَى النَّصَارَى وَبَاعَ لَهُمْ العَرَائِشَ مِنْ أَرْضِ المُسْلِمِينَ...**"[57].

وامتحن عدد من علماء الوقت في هذه النازلة الخطيرة، التي تولى الإفتاء فيها عدد من العلماء المسلمين وعلى رأسهم محمد بن قاسم بن القاضي[58] الذي أفتى بجواز تسليم الشيخ المأمون السعدي مدينة العرائش للإسبان، مستدلين على ذلك بأن فداء المسلمين سيما أولاد أمير المسلمين من يد العدو الكافر يجوز تسليمه مقابل بلد من بلاد الإسلام، ولا يستبعد أن هذه فتوى هؤلاء العلماء تَقِيَّةً للحفاظ على أنفسهم من عقاب المأمون، غير أن القليل من العلماء لم يوافقوا على هذا الرأي واكتفوا بالفرار دون إبداء الرأي الصائب[59]، وقد تم تسليم ميناء العرائش فعليا إلى الإسبان في 4 رمضان 1019هـ/20 نوفمبر 1610م[60].

8. مقتل محمد الشيخ المأمون

لقد شكلت حادثة العرائش تنافرا وعداء بين المأمون وحاكم تطوان، وذلك أن المولى محمد الشيخ أراد أن يستقبل مساعدات إسبانية ستنزل في ميناء تطوان، فكتب إلى حاكمها المقدم أحمد بن عيسى النقسيس يبلغه بالأمر، فرد عليه هذا الأخير برسالة أغلظ له فيها الكلام ورفض طلبه[61]، وزاد الأمر حدة بين الطرفين، إذ يشير صاحب كتاب **تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية**، إلى هذه النقطة بقوله: "... **وَكَانَ القِيَامُ عَلَى عَبْدِ اللهِ بنِ الشَّيْخِ عَامَ عِشْرِينَ وَأَلْفٍ أَوَاخِرِ رَبِيعِ الأَوَّلِ عَلَى يَدِ الشَّرِيفِ سُلَيْمَانَ وَالفَقِيهِ المَرْبُوعِ، وَقَامَ بِمَكْنَاسَةَ الشَّرِيفُ أَمْغَار، وَبِتِطَاوِن المُقَدَّمُ أَحْمَدُ النِّقْسِيسُ...**"[62]، وتفيد كلمة القيام فيما ذكره المؤلف المجهول القيام بالثورة وترك الطاعة وخلع البيعة، والقيام على عبد الله بن محمد الشيخ يفيد أيضا أن الأمر ينطبق على أبيه لأنه كان يحكم باسمه، وهو ما سيتسبب في مقتل المولى محمد الشيخ بن المنصور، وذلك أن هذا الأخير قد مات بفج الفرس على مقربة من تطوان، فقد اتفق الناس على إهدار دمه، لما رأوا من انحلال أخلاقه وفساده وموالاته للإسبان.

تقدم أبو الليف في وسط محلته بموضع يعرف بفج الفرس، وقتله وتركت جثته مكشوفة العورة أياما ومن ثم حملوه مع من قتل من أصحابه وبعض أولاده ودفنوهم بتطوان، في خامس رجب سنة 1022هـ/ 1613م[63]، وتذكر بعض المصادر ولعل أهمها كتاب "**نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**"، بأن مقتل المولى محمد الشيخ المأمون كان بإشارة من أحمد بن عبد الله بن أبي محلي، وأنه كتب للمقدم أحمد النقسيس، وكذا أبو الليف وحرضهما على قتله، ففعلوا واستولوا على أمواله[64]، وتركت جثته على الأرض من دون دفن إلا بعد أيام، فدفنه بعض التطوانيين [65].

9. زيدان يسعى للانتقام من الفاسيين

أما المولى زيدان فقد أيقن أن قوته في مراكش لم تكن كافيه، ولن يستطيع مواجهة عبد الله وحلفائه الإسبان، لذا أرسل كاتبه عبد العزيز بن محمد الثعالبي بعشرة قناطير من الذهب!! إلى ملك إسطنبول، وطلب منه أن يمده ببعض أجناده، كما فعل مع ابن عمه عبد الملك الغازي، فجهز السلطان العثماني من جيش الأتراك 12 ألفا وركبوا البحر، إلا أن المحاولة باءت بالفشل، إذ غرق الأسطول ولم ينج منه إلا غراب واحد فيه قليل من الجند [66]، يذكر الدكتور عمر بن خروف أن زيدان قد اتصل بباشاوات الجزائر وأنهم قد رحبوا بفكرة القتال معه

وتدعيمه كما دعموا اباه المنصور وأيضا عبد الملك السعدي من قبل، ولكن الدعم الفعلي الذي مني به لم يتم [67].

لم تنته الحروب بين زيدان وعبد الله بن محمد الشيخ، ومن عجيب ما يحدث استنهاض عبد الله بن المأمون العامة للجهاد ضد النصارى فما إن سمع زيدان بنزول النصارى على العرائش؛ دعا للجهاد في مناورة منه لكسب أنصار جدد من العامة والصوفية من جهة، طمعا في الاستيلاء على المدن والقواعد الشمالية من المغرب الأقصى، إلا أن المولى زيدان واجههم من ناحية أدخيسان – سهل خريبقة حاليا–، فانهزم الناس عن عبد الله، فأرسل زيدان قائده عبد الصمد في فاس مناديا بنصره، إلا أنه تعرض للضرب والإهانة من طرف البعض من العامة، فشجوا وجهه، وهو ما دعا بالمولى زيدان إلى الغضب فحكم في رقابهم السيف، إلا أنه ندم على ذلك ونادى بالأمان بعدما استولى على فاس مؤقتا، وهو الأمر الذي لم يمنعه من شتم الجميع من سكانها وتوجيه الإهانات للكل، وقد هم بقتل الأعيان منهم، أما سكان فاس فقد تقبلوا ذلك مبطنين العداوة لزيدان[68].

بعد كل هذه الأحداث اجتمع بعض العرب عند القنطرة المهدومة في حوالي 8000 شخص، فخرج إليهم زيدان، غير أنه انهزم ولم يبق معه إلا رهط قليلون، فهرب إلى نفر من الرجال، فوجد فيهم ابن أخيه عبد الله بن محمد الشيخ المأمون، فهرب كلا الطرفان من بعضهما!! ومن الغد قدم أهل فاس إلى زيدان يهنئونه فظن أنهم قصدوا الاستهزاء، فأمر بهم فسلبوا وترك البعض ينظر عورة البعض رجالا ونساء، وكان ما سلبه حوالي 10000كسوة، كل هذه المتغيرات جعلت من فاس مدينة لا تخضع لأحد حتى لعبد الله بن المأمون، وهو ما سهل للمولى زيدان دخولها، وكان دخوله إليها يوم الإثنين 16 رجب 1019هـ/04 أكتوبر 1610م، فاستباحها جنوده ونهبوها وفعلوا فيها المناكر، إلا أنه أمر بتسكين الروعة وبث الأمان فيها[69]، ولكن دخول فاس لا يعني السيطرة عليها.

لقد كانت هذه الأحداث آخر انتصارات المولى زيدان في مدينة فاس، ففي رواية شعبية أوردها محمد بن الطيب القادري ضمن حديثه عن ترجمة الشيخ محمد قدَّار[70]، تفيد أن أحد الفُقَرَا تواجد وأخذ يقول: "**إِنَّ السُّلْطَانَ زَيْدَانَ سَيَجِيءُ لِهَذِهِ الْبَلَدِ [كذا]، وَيَكُونُ لهُ ويَكُونُ لَهُ !!، وَيَعْمَلُ وَيَعْمَل!!...**"[71]، فرد عليه الشيخ قَدَّار –وكان حاضرا–، بأنه أثخن القتل في سكان مدينة فاس، وهو ما أثار غيرة مولاي إدريس على بلده، فضربه ضربة صَيَرَّتْهُ وراء أم الربيع[72]، أو قال وادي العبيد[73]، وكانت من الشيخ مكاشفة فتنبأ إلى أن زيدان لن يستطيع تجاوز هذا الوادي حتى يموت[74].

خاتمة

من أهم النتائج التي توصلنا إليها من خلال مقالنا هذا ما يلي:

لا شك أن المولى المنصور قد أخطأ في اختيار ابنه المأمون لولاية العهد، وهو يعرف أنه لا يحسن التصرف، ولكنه سمع لحاشيته الذين لا يستبعد أنهم متعاونون مع الجوهر أم المأمون، وهذا ما يفسر إصرارهم

على أن المأمون قد تاب عن غيه ومجونه ولا مبالاته، في حين تؤكد المصادر التاريخية على العكس تماما بل وتؤكد أنهم أعلم بحال المأمون من أبيه، كما أن المنصور أيضا أخطأ لما استثنى ابنه ولم يُحَلِّفْهُ في بيعة المأمون، ولكن رغم هذا وذاك فالحرب كانت ستقوم بين الإخوة الطامعين في الحكم لا محلة، ولكنها ستنتهي بانهزام أبي فارس من أول جولة لولا أن المأمون خرج من سجنه وغير كل المعادلة، والجدير بالذكر أن تطور الأحداث أقحم العامة ورجال القبائل من المجندين في صراعات وثارات تتداخل مع مصالح شخصية في الغالب، وكانت هذه الحروب المؤذن الأول لانقسام الدولة السعدية إلى ما عرف في التاريخ المغربي بمملكتي فاس ومراكش، ولمؤرخ الدولة العلوية أبو القاسم الزياني في **الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب**، ملخص يعبر فيه عن المحطات التاريخية للدولة السعدية ومآلها بعد موت المولى المنصور، وفي ذلك يقول: "... **قَامَ لَهُمْ الأَشْرَافُ الزَّيْدَانِيُّونَ بِالسُّوسِ ... وَاسْتَوْلَى الْمَنْصُورُ مِنْهُمْ عَلَى مَمَالِكِ السُّودَانِ، وَلَمَّا مَاتَ تَنَازَعَ بَنُوهُ عَلَى الْمُلْكِ وَكَثُرَتْ الْفِتَنُ، وَدَخَلَ دَوْلَتَهُمْ الْهَرَمُ، وَقَامَ الثُّوَّارُ عَلَى أَوَاخِرِهِمْ وَعَجَزُوا عَنْ الدِّفَاعِ، وَقَنَعُوا بِمُلْكِ مُرَّاكُشَ، وَصَارَ الْمَغْرِبُ كَالأَنْدَلُسِ إِبَّانَ الطَّوَائِفِ، كُلُّ إِقْلِيمٍ فِيهِ ثَائِرٌ إِلَى أَنْ قُتِلَ آخِرُهُمْ وَهُوَ أَبُو الْعَبَّاسِ، قَتَلَهُ كَرُّوم الحَاج الثَّائِرُ بِحُوَزِ مُرَّاكُشَ وَاسْتَمَرَّ مُلْكُ الطَّوَائِفِ بِالْمَغْرِبِ أَرْبَعِينَ سَنَةٍ إِلَى أَنْ غَلَبَ عَلَى مُلْكِ الْمَغْرِبِ مَوْلاَي مُحَمَّدٌ الشَّرِيفُ...**" [(75)]، وفي هذه الفقرة اختصر الزياني أحداث تاريخية هامة متصلة يفضي بعضها إلى بعض، حتى سقوط الدولة نهائيا سنة 1659م.

أراد الفاسيون أول أمرهم أن يستعينوا بزيدان للتغلب على نظرائهم المراكشيين، فطمعوا أن يَتَّبِعُوهُم في مبايعته، غير أن مفاجأتهم كانت كبيرة بعد أن تأكدوا أنهم وقعوا على أسوأ اختيار، فافترقوا عن زيدان وتوجهوا إلى محمد الشيخ المأمون، ولكنهم ندموا على ذلك ندما شديدا، فأرادوا أن يرجعوا إليه ولكن لا يستبعد أن يكون أعيان مراكش هم من غيروا قلب زيدان على الفاسيين، فقسى عليهم أكثر من اللازم، حتى أثناء محاولتهم للقرب منه، وعلى العموم؛ فإن كان الفاسيون قادرين على تحمل زيدان مهما كانت قساوة الأحداث، فإنهم لم يكونوا قادرين على التخلي عن ثأرهم عند المراكشيين، لهذا تمكن المولى زيدان من بسط نفوذه في الغرب والشمال ولكنه عجز عن إخضاع فاس التي استقل بها بعده عبد الله بن المأمون حتى سنة وفاته 1033هـ، أو سنة 1032هـ.

الهوامش:

(1) محمد زروق، **دراسات في تاريخ المغرب**، ط1، دار إفريقيا الشرق، د.م، 1991، ص.ص. 14. 18.

(2) عبد الرحمن السعدي، **تاريخ السودان**، ترجمة السيد هوداس وين نوة، Librairie d'Amérique et d'Orient، 1981، باريس، ص111؛ إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1984، ج2، ص263.

(3) محمد الصغير الإفراني، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، صحح عباراته التاريخية السد هوداس، مطبعة السيد بردين، أنجي، 1888، ص98.

(4) المصدر نفسه، ص ص 100، 101.

(5) وفي هذا المجال يقول المؤرخ محمد الصغير الإفراني: "**وقد اتخذ يوم الأربعاء للمشاورة وسماه الديوان**"؛ محمد الصغير الإفراني، المصدر السابق، ص157.

(6) دييغو دي طوريس، **تاريخ الشرفاء**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الجمعية المغربية للنشر والتأليف، دار النشر والتوزيع، مطابع سلا، الدار البيضاء، سلا، د.ت، ص153.

(7) المصدر نفسه، ص146.

(8) المصدر نفسه، ص140.

(9) محمد بن الطيب القادري، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، ضمن مجموع موسوعة أعلام المغرب، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996، ج4، ص1132.

(10) محمد الصغير الإفراني، المصدر السابق، ص179.

(11) أحمد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق، جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955، ج5، ص93.

(12) المصدر نفسه، ج5، ص93.

(13) المصدر نفسه، ج5، ص93.

(14) المصدر نفسه، ج5، ص93.

(15) في هذا الإطار وفي محاورة لطيفة؛ رد محمد بن الشريف العلوي على رسالة المولى محمد الشيخ الأصغر السعدي يبين فيه موقفه من كتاب **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا** للفشتالي، وأشار إلى أنه لم يجد فيه موردا عذبا، والأهم من كل هذا أنه ذكر شيئا عن منهج الكتابة التاريخية في عصر الدولة السعدية، التي أرخ لها الكثير من المؤرخين، بغير موضوعية، وَذَكَرَ منهم محمد بن عسكر الشفشاوني صاحب كتاب "**دوحة الناشر لمحاسن من عرف بالمغرب في القرن العاشر**"، وكذا ابن القاضي المكناسي، صاحب "**درة الحجال في أسماء الرجال**"، إضافة إلى عبد العزيز الفشتالي المذكور صاحب كتاب "**مناهل الصفا**"، وذلك أن هؤلاء وغيرهم كانوا مقربين من البلاط السعدي، وكاتبين فيه، وفي ذلك يقول: "...**إذ الكُلُّ أَهْلُ بِسَاطِكُمْ وَمَحَلُّ مُزَاحِكُمْ وَانْبِسَاطِكُمْ** ..."، فلا عبرة بأخذ ما يقولون وما يعددون من مزايا السلاطين السعديين ودولتهم، أحمد بن خالد الناصري، المصدر السابق، ج6، ص103.

(16) المصدر نفسه، ج5، ص94.

(17) المصدر نفسه، ج5، ص94.

(18) أنظر فيصل مبرك، **الواقع في المغرب الأقصى وأثره على تاريخ الدولة السعدية 1603- 1613**، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر -2-، قسم التاريخ، 2011، ص54.

(19) محمد بن الطيب القادري، المصدر السابق، ج4، ص1132.

(20) فيصل مبرك، المرجع السابق، ص54.

(21) أحمد الناصري، المصدر السابق، ج5، ص116.

(22) وهو **يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي الداودي المناني**، كان أبوه وجده صاحبا علم وصلاح، وشهرة واسعة في بلاد السوس والمغرب الأقصى، ترأس زاوية أبيه بعد وفاته 1012هـ/1603م، وكان فقيها متعدد التكوين، أخذ عن أكابر شيوخ المغرب الأقصى في وقته، ولعل أهمهم الشيخ المنجور، وكذا الشيخ أبي العباس أحمد الحسني -دفين درعة- وأخذ عنه كثيرا من الفنون وأجازه في علوم الحديث إجازة عامة، تحالف مع المولى زيدان ضد الفقيه الثائر أحمد بن أبي محلي وقتله سنة 1022هـ/ 1613م؛ للمزيد من التفاصيل أنظر فيصل مبرك، المرجع السابق، ص101 وما بعدها.

(23) الناصري، المصدر السابق، ج5، ص117.

(24) المصدر نفسه، ج5، ص117.

(25) محمد الصغير الإفراني، المصدر السابق، ص188.

(26) إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص309.

(27) محمد الصغير الإفراني، المصدر السابق، ص189.

(28) المصدر نفسه، ص 189.

(29) أحمد بن خالد الناصري، المصدر السابق، ج6، ص147.

(30) محمد بن الطيب القادري، المصدر السابق، ج4، ص1132.

(31) كانت ولادة المولى **أبي العباس أحمد المنصور** حسب المؤرخ أحمد بن خالد الناصري سنة ستة وخمسين وتسعمائة بعد الهجرة، وهو ابن السلطان أبي عبد الله الشيخ وأمه الحرة مسعودة بنت أبي العباس أحمد بن عبد الله الوزكيتي الورزازي؛ أنظر: عبد العزيز الفشتالي، **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا**، تحقيق عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية، د.م، د.ت؛ أحمد المقري، **روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحاضرتين مراكش وفاس**، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1983.

(32) أحمد الناصري، المصدر السابق، ج6، ص147.

(33) يذكر محمد الصغير الإفراني منهم: الفقيه أبي الحسن علي بن عمران السلالي، وسيدي محمد الشاوي؛ محمد الصغير الإفراني، المصدر السابق، ص190.

(34) يصفه محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني بقوله: "... **الشَّيْخُ الشَّهِيرُ الْعَالِمُ الْكَبِيرُ قُدْوَةُ الْأَنَامِ النَّسَّابَةُ... مُفْتِي فَاسَ وَخَطِيبُ جَامِعِ الْقَرَوِيِّيْنَ بِهَا... أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ قَاسِمِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنُ عَلِيِّ الْمُلَقَّبُ بِالْقَصَّارِ، الْقَيْسِيُّ الْأَنْدَلُسِيُّ الْغَرْنَاطِيُّ الْأَصْلِ، الْفَاسِيُّ الْمَنْشَأِ وَالدَّارِ، الْمُتَوَفِّي سَنَةَ إِثْنَيْ عَشَرَ وَأَلْفٍ... فَدُفِنَ بِإِزَاءِ بَابِ رَوْضَةِ سِيدِي أَبِي الْعَبَّاسِ السَّبْتِي...**"؛ محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني، **سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس**، تحقيق محمد حمزة بن علي الكتاني، ج2، سلسلة الموسوعة الكتانية لتاريخ فاس، د.م، د.ت، ص72.

(35) رواه البيهقي في **السنن الكبرى** في باب قتال أهل البغي، والحاكم في **المستدرك على الصحيحين** باب قتال أهل البغي وهو آخر الجهاد، ومسلم في **صحيحه**، باب الإمارة، العسقلاني في **فتح الباري في شرح صحيح البخاري**، باب الحدود.

(36) أحمد الناصري، ج6، المصدر السابق، ص147.

(37) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص203.

(38) ويبدو أن المولى **أبا فارس** قد أخذ بنصيحة قائده جوذر، فأمر بتسريح المولى محمد الشيخ المأمون، إلا أنه كان متخوفا منه، فقد رد له أبو فارس برسالة فيها: "**إِذَا ضَرَبْتَ بِذَلِكَ السَّيف؛ رُدَّهُ إِلَى غِمْدِهِ**"، ولسوء الحظ وقع الكتاب في يد المأمون قبل القائد جوذر، وفهم قصد أخيه منه، وهو ما جعل الوضع يزداد خطورة؛ محمد الصغير الإفراني، المصدر السابق، ص203.

(39) ذكر الإفراني في نزهة الحادي؛ أن الباشا جوذر قد راود أبا فارس في تسريح المأمون من سجنه، وذكر له أن زيدان رجل شجاع ذو بأس لا يمكن القضاء عليه إلا بإخراج المأمون من السجن، فإذا عرفته العامة والجند مالوا إليه، فإذا انتهت المهمة يجب أن يرجع إلى سجنه، وبالفعل كان لقاء الأطراف الثلاثة في منطقة مواتة على نهر أم الربع، فانشق معظم الجيش عن زيدان وانهزم في المعركة، غير أن المأمون انعزل بمن تبعه فلم يقدر عليه احد، بل وتبع زيدان إلى فاس وحاصرها وطلب من أهلها إخراج زيدان، الذي فر إلى وجدة ومنها إلى سوس فسجلماسة، أنظر: محمد الصغير الإفراني، المصدر السابق، ص192.

(40) الناصري، المصدر السابق، ج6، ص47.

(41) وكان سبب ذلك أن أبا فارس كان قد قرر إعادته إلى السجن بعدما يهزم زيدان مباشرة خوفا من تكوين عصبية أخرى مناهضة.

(42) ويذكر مؤرخ القرن السابع عشر محمد الصغير الإفراني بأن المولى محمد الشيخ المأمون استبد بالملك وأساء السيرة في أهل فاس، ودعا بالشيخين الفقيهين القاضي أبي القاسم بن أبي نعيم، والمفتي أبي عبد الله بن قاسم القصار، فلامهما على مبايعة المولى زيدان، وقولهما فيه أن أولاد الإماء لا يتقدمون في البيعة على أولاد الحرائر؛ محمد الصغير الإفراني، المصدر السابق، ص192.

(43) أحمد الناصري، المرجع السابق، ج6، ص12 وما يليها.

(44) محمد الصغير الإفراني، المصدر السابق، ص 193.

(45) يذكر أحمد الناصري في هذا الصدد: "...**وَاشْتَغَلَ هُوَ بِالْفَسَادِ وَمَنْ يُشَابِهُ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ حَتَّى حُكِيَ أَنَّهُ زَنَى بِجَوَارِي جَدِّهِ الْمَنْصُور وَاسْتَمْتَعَ بَحَظَايَاه وَأَكَلَ رَمَضَانَ وَشَرِبَ الْخَمْرَ فِيهِ جَهَارًا وَعَكَفَ عَلَى اللَّذَّاتِ وَأَلْقَى جِلْبَابَ الْحَيَاءِ عَنْ وَجْهِهِ...**"؛ أحمد الناصري، المصدر السابق، ج6، ص150.

(46) محمد الصغير الإفراني، المصدر السابق، ص204.

(47) محمد بن الطيب القادري، المصدر السابق، ج3، ص 1161.

(48) في نفس السياق يذكر المؤلف المجهول شيئا من الخوف في الحياة اليومية في عهد المأمون، فبغض النضر عن صفات المأمون القبيحة التي ذكرها المؤرخ المجهول؛ الغدر والفساد وشرب الخمر واستهلاك الحشيش وعدم اعتنائه بهيبته كملك لا في اغتسال من جنابة ولا حضوره لصلاة الجمعة، يأكل مال المساكين والرعية، ما زاد خوف الناس على الحوانيت والأسواق فتطوع الناس للعسة بعد سرقة برج الثياب!! وبرج الأعشار!! وسرقت دار السكة، أنظر: مؤلف مجهول، **تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية**، تحقيق عبد الرحيم بن حادة، ط1، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش، 1994، ص69.

(49)ERNEST MERCIER, **Histoire de L'Afrique septentrionale Barbaries depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête Française**, ERNEST LEROUX ÉDITEUR, Paris, 1888, T3, p186.

(50) مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص70.

(51) الناصري، المصدر السابق، ج6، ص195.

(52) المصدر نفسه، ص195.

(53) محمد الصغير الإفراني، المصدر السابق، ص197.

(54) المصدر نفسه، ص196.

(55) مدينة في جنوب إسبانيا معروفة بطابعه الإسلامي الأندلسي، هي الآن ذات حكم ذاتي.

(56) أمينة اللوه، "**قضية العرائش**"، مجلة البحث العلمي، عدد 27، 1977، ص192.

(57) مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص140.

(58) وقد واختفى بعد الحادثة مدة طويلة ثم ظهر بعدها، حيث هجمت عليه العامة في الجامع عند العشاء يوم الاثنين 21 حجة 1040هـ/1634م وقتلوه ضربا، محمد الصغير الإفراني، المصدر السابق، ص6، غير أن محمد بن الطيب القادري يميل إلى إسقاط هذه التهمة عنه، أنظر: محمد بن الطيب القادري، المصدر السابق، ج3، ص1291.

(59) المصدر نفسه، ج3، ص 6.

(60) المصدر نفسه، ج4، ص1167.

(61) محمد داوود، **تاريخ تطوان**، معهد مولاي الحسن، تطوان، 1959، ج1، ص179.

(62) مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص91.

(63) محمد بن الطيب القادري، المصدر السابق، ج4، ص1216.

(64) محمد الصغير الإفراني، المصدر السابق، ص199.

(65)ERNEST MERCIER, OP.CIT, pp 191. 192.

(66) محمد الصغير الإفراني، المصدر السابق، ص239، العباس بن إبراهيم السملالي، **الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام**، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1995، ج3، ص256.

(67) عمار بن خروف، **العلاقات بين الجزائر والمغرب 1517- 1659**، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة دمشق، 1983، ص256.

(68) محمد الصغير الإفراني، المصدر السابق، ص240.

(69) المصدر نفسه، ص240.

(70) أنظر ترجمته: محمد بن الطيب القادري، المصدر السابق، ج3، ص1221.

(71) المصدر نفسه، ج3، ص1223.

(72) نهر يشق مدينة خنيفرة الحالية من الشمال إلى الجنوب، متعدد المنابع والروافد، قيل إنها تصل إلى أربعين منبعا، ذكره المعتمد ابن عباد دفين أغمات في قوله:

سَلَامًا سَلَامًا أَنْتُمَا الْأُنْسُ كُلُّهُ *** وَإِنْ غِبْتُمَا أُمُّ الرَّبِيعِ هِيَ الْأُنْسُ

يتجه هذا النهر إلى الجنوب والغرب فيمر على مدينة خنيفرة ثم يمر على قرية تامسكورت حيث قبر العلامة الشيخ ابن ناصر الدرعي، ثم يسير حتى يسامت الزاوية الدلائية من أسفلها، ثم يسير حتى يصل قصبة تادلا، ثم يخرج من جبال الأطلس إلى بسيط بني عمير ثم بسيط بني موسى حيث يلتقي مع وادي العبيد فيتحدان نحو المصب المشترك في المحيط الأطلسي، أنظر: أحمد المنصوري، **كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر**، تحقيق محمد بن لحسن، ط1، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الرباط، 2004، ص47 وما يليها.

(73) اسمه الحقيقي حسب أحمد المنصوري؛ **وادي العباد**، ينبع من المحل المعروف بتازكراوت، ومن هذا المحل ينبثق نهر وادي العبيد متجها نحو الجنوب ليصب في نهر أم الربيع، ومن ثم يتصلان بالبحر المحيط، أحمد المنصوري، المرجع السابق، ص49.

(74) محمد بن الطيب القادري، المصدر السابق، ج3، ص1223.

(75) أبو القاسم الزياني، **الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب**، مخطوط، مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء، ص297.